الفيلسوف جون ديوى

JOHN DEWEY

تصدر صحفنا ومجلاتنا العربية طافحة باخبار اوربا واميركا السياسية والاقتصادية، وقد نقرأ فيها احياناً شيئاً عن حركتها العلمية ، غير انهُ يندر جدّاً ان نجد فيها اشارة الى المرحلة الواسعة التي قطعها الغرب عامة واميركا خاصة في ميدان التعليم والتهذيب

تقول اميركا خاصة لان ما بذلهُ رجالها من الجهد وما انفقهُ اهل البرّ فيها من المال في سبيل التجارب التعليمية والتهذيبية الواسعة النطاق ليس لهُ نظير في بلد آخر من بلدان العالم

واذا ذكرنا التعليم هناك فاول زعيم نتجه اليهِ انظارنا وتنصرف اليهِ اذهاننا من غير تردّد او تفكير هو الفيلسوف العظيم جون ديوى

فهو اكبر فيلسوف بلا مراء على قيد الحياة . ولد سنة ١٨٥٩ وتلقى علومهُ في معاهد اميركا وكلياتها ونال شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٨٨٤ والدكتوراه في القانون سنة ١٩٠٤

واشتغل بالتعليم ثم قام برحلات كثيرة الى اوربا واسيا واحتك بفلاسفة العالم وكبار رجال التعليم فيهِ ، واطلع على كتب التربية والفلسفة في المانيا خاصة ، وكان يقوم في اميركا بتجارب علمية عظيمة الشأن في احد المعاهد المتصلة بجامعة شيكاغو

واذا تصفحنا تاريخ القرن العشرين منذ بدايتهِ الى اليوم رأينا مجلات اميركا وصحفها طافحة بمقالاتهِ الشيقة وافكارهِ المبتكرة وشاهدنا المكاتب ملأى بمؤلفاتهِ الشهيرة في التربية والمنطق وعلم النفس والاخلاق والفلسفة . وألفينا تأثيرهُ الفعّال في معاهد اميركا ونظمها والثورة الفكرية فيها واضح المعالم ظاهر الاثر

والفيلسوف جون ديوى لا يجهلهُ احد في اميركا ولست ابالغ اذا قلت في اوربا ايضاً فهو وان كان الآن يشغل كرسي الفلسفة في جامعة من اكبر جامعات اميركا (كولومبيا في نيويورك) وكلية المعلمين فيها خاصة — فان صيتهُ ذائع في كل انحاء العالم المتمدن . ومؤلفاتهُ تزين مكاتب الكليات والجامعات وآراؤهُ يسير بمقتضاها رجال التعليم وفلسفتهُ من اكبر العوامل التي خطت باميركا خطوات واسعة الى الامام

وقد حاضر في كثير من اكبر جامعات العالم مدعوّاً من قبل اصحابها ، حاضر في انجلترا

وفرنسا والمانيا — ثم دعتهُ حكومة اليابان لالقاء محاضرات في جامعة طوكيو ودعتهُ حكومة الصين للغرض نفسهِ وقد دُعي اخيراً لالقاء محاضرات في جامعة الاستانة في خلال العطلة الصيفية

وفي اثناء اقامتي في نيويورك منذ عامين نشرت جرائد اميركا خطاباً مرسلاً اليهِ من حكومة السوفيت بروسيا موقعاً عليهِ من مدام لينين زوجة الزعيم الروسي المتوفى تطلب فيهِ الفيلسوف ديوي لالقاء محاضرات في لننغراد — ولم يستطع تلبية ندائها حينئذٍ لاسباب سياسية

***

وقد كان لي الشرف ان اكون احد تلاميذهِ في جامعة كولومبيا في نيويورك ولست ابالغ اذا قلت ان الطلبة الذين كانوا يستمعون محاضراتهِ يمثلون معظم بلدان اميركا واوربا واسيا . فالطلبة الذين كانوا يؤمّون الجامعة من الهند والصين وجزائر الفلبين وكوريا واليابان والبرازيل وجميع ممالك اوربا كانوا يعرفون اسم ديوي قبل مشاهدتهِ كما نعرف نحن اسم الرئيس ولسن مثلاً

وكان الطلبة يقدمون الساعات التي يقضونها بين يديهِ تقديساً . فيجلسون وكأن على رؤوسهم الطير وانظارهم متجهة اليهِ وافكارهم محصورة في ما يقول لانهم يظنون جيداً انهم اذا شردوا بافكارهم لحظة واحدة لم يتمكنوا من فهم ما بقي من محاضرتهِ . يجلس على كرسيهِ في يده الساعة المعينة وامامهُ مكرتيرة تدوّن اقوالهُ — ثم يوجه نظرهُ الى مكان واحد من الغرفة فلا يتحوّل عنهُ حتى تنتهي محاضرتهُ — واذا تأملتَ في وجههِ وهو جالس الى مكتبهِ يحاضر ورأسهُ مكلل بالشيب الوقور والشعر مدلّى على حاجبيهِ ، تمثّل لك الفيلسوف كما تُخيّل سقراط او افلاطون او ارسطوطاليس

والطلبة هناك يقولون ان جون ديوي حين القاء محاضراتهِ لا يشرح درساً او يحاضر بالمعنى المعروف انما يفكّر تفكيراً عالياً . وهذا القول ينطبق تمام الانطباق عليهِ لانك اذا تفرّست فيهِ ملياً وهو يحاضر خيّل اليك انهُ يخاطب نفسهُ او يفكّر بصوت مسموع . وهو يترك لطلبتهِ مطلق الحرية في التفكير والتعبير عن آرائهم ويحترم آراءهم مهما كان الخطأ فيها واضحاً . قيل انهُ كان يوماً مع زوجتهِ في المانيا فرزقا هناك غلاماً ، وجرياً على قوانين البلاد حضر اليها كاتب من قلم التسجيل طالباً منهما استيفاء بعض البيانات عن الغلام المولود . فاجاب ديوي عن جميعها ما خلا واحداً وهو السؤال الخاص بدين الصبي . فسألهُ

الكاتب عن سبب ذلك فاجاب ديوى لان الطفل لا يعقل ولا يمكن التكهن الآن بالمذهب الديني الذي يختاره في المستقبل . فاصر الموظف على استجواب الوالد عن دين المولود ، واصر ديوى على ان الطفل في تلك الحالة لا دين له ولو ان أبويه مسيحيان

وحسم النزاع بينهما بأن تناول ديوى القلم وكتب في المكان المشار اليه ان الطفل Agnostic اي «لا ادري»

واذا شئت ان تتلقى درسا في الدعة والتواضع والهدوء ودماثة الاخلاق وسلامة التفكير والدقة والتعمق في المسائل واطلاق العنان للفكر والحرية المطلقة والتجرد من قيود العادات والتقاليد — اذا شئت كل ذلك فعاشر الفيلسوف ديوى ولو عن كثب

واذا لم تسنح الفرص لرجال التعليم خاصة وعشاق التفكير والمنطق والفلسفة عامة الاتصال بديوى مباشرة ، واذا لم تتح لهم مطالعة مؤلفاته جميعها ومقالاته البليغة فانني اشير عليهم بان يطالعوا مصنفاته الآتية على الاقل : وهي : —

School & Society	المدرسة والمجتمع الانساني
The Educational Situation	الحالة التعليمية
The Child & the Curriculum	الطفل ومنهج التعليم
The School & the Child	المدرسة والطفل
Moral Principles in Education	مبادئ اخلاقية في التربية
Interest & Effort in Education	الميل والمجهود في التربية
How We Think	كيف نفكر
School of To-morrow	مدارس الغد
Democracy & Education	الديمقراطية والتربية
Reconstruction of Philosophy	اعادة بناء الفلسفة
Articles in Monroe's Encyclopedia of Education	مقالاته في دائرة معارف التعليم لمنرو

هذا ولا تيأسن اذا صادفت شيئا من الصعوبة في استيعاب آرائه وما جاء في مصنفاته ، ولا يخطرن ببالك ان ذلك ناتج عن جهلك باللغة الانجليزية او عدم تعمقك فيها والاخذ بناصيتها فان اكبر رجال التربية هناك يصرحون ان فلسفة ديوى وكتاباته

تحتاج الى مجهود وتفكير و يجب التأني في درسها وانعام النظر في مكنوناتها ومدلولاتها

***

وقد كان جلّ أمانيّ منذ زمن طويل ان اكتب لابناء العربية شيئاً عن ديوى وفلسفته او أترجم شيئاً من مؤلفاته — فانني بعد ما عاشرتهُ زمناً في نيو يورك وخبرت منزلتهُ العالية وشهرتهُ الدائمة كان يشجعني و يدهشني ان ارى العالم العربيّ لا يعلم شيئاً عنهُ وان الكتّاب عندنا يجهلون اسمهُ

غير انهُ حدا بي الى كتابة هذه الكلمة اليوم ترجمة لاحد مؤلفاته وهي بين يديَّ الآن أتصفحها فأعيد الى ذهني ذكرى استاذي العظيم وآرائهِ الفلسفية الحكيمة وافكارهِ السديدة و بعد النظر فيها

هذا الكتاب هو ترجمة مؤلف ديوى المشهور School & Society (المدرسة والمجتمع الانساني). الذي قيل عنهُ ان كان ابعد المؤلفات اثراً في نهضة اميركا العلمية. فقد اسهب فيهِ ديوى في اقامة الدليل على أن امثل طريقة في التعليم هي جعل مناهج الدرس شديدة الاتصال والارتباط بالحياة ، وان الخروج عن هذه القاعدة يوجد هوة بعيدة وحاجزاً كثيفاً بين تعاليم المدرسة وحقائق الحياة . وابان ان المدرسة هي جزء من الحياة بل الحياة بعينها — ووصولاً لهذه الغاية قسم المؤلف الكتاب الى ثلاثة اقسام رئيسية وهي :

(١) المدرسة والتقدم الاجتماعي
(٢) المدرسة وحياة الطفل
(٣) المجهود الضائع في التربية

ورغم الصعوبة التي يكابدها القارئ في تصيّد المعاني من بحر ديوى الطامي فان الاستاذ الضليع ديتري قندلفت عضو المجمع العلمي العربي في دمشق قد وفّر على القارئ مؤونة التعب ووضع المعاني في عبارة سهلة المأخذ متينة المبنى مع شدة المحافظة على الاصل والمبالغة في اظهار نفسية المؤلف وروحهِ بأجلى صورة

ولا يفوتنا ان نختم كلمتنا بهذه الحقيقة وهي ان النهضة التعليمية في اميركا بل اذا شئت فقل في العالم المتمدن بأسره كان محورها منذ عشرين عاماً الى خمسين عاماً الاستاذ وليم جيمس — اما اليوم فيعزى الانقلاب العظيم في روح التعليم ووسائلهِ الى فلسفة الاستاذ ديوى وآرائهِ

جامعة القاهرة الاميركية امير بقطر

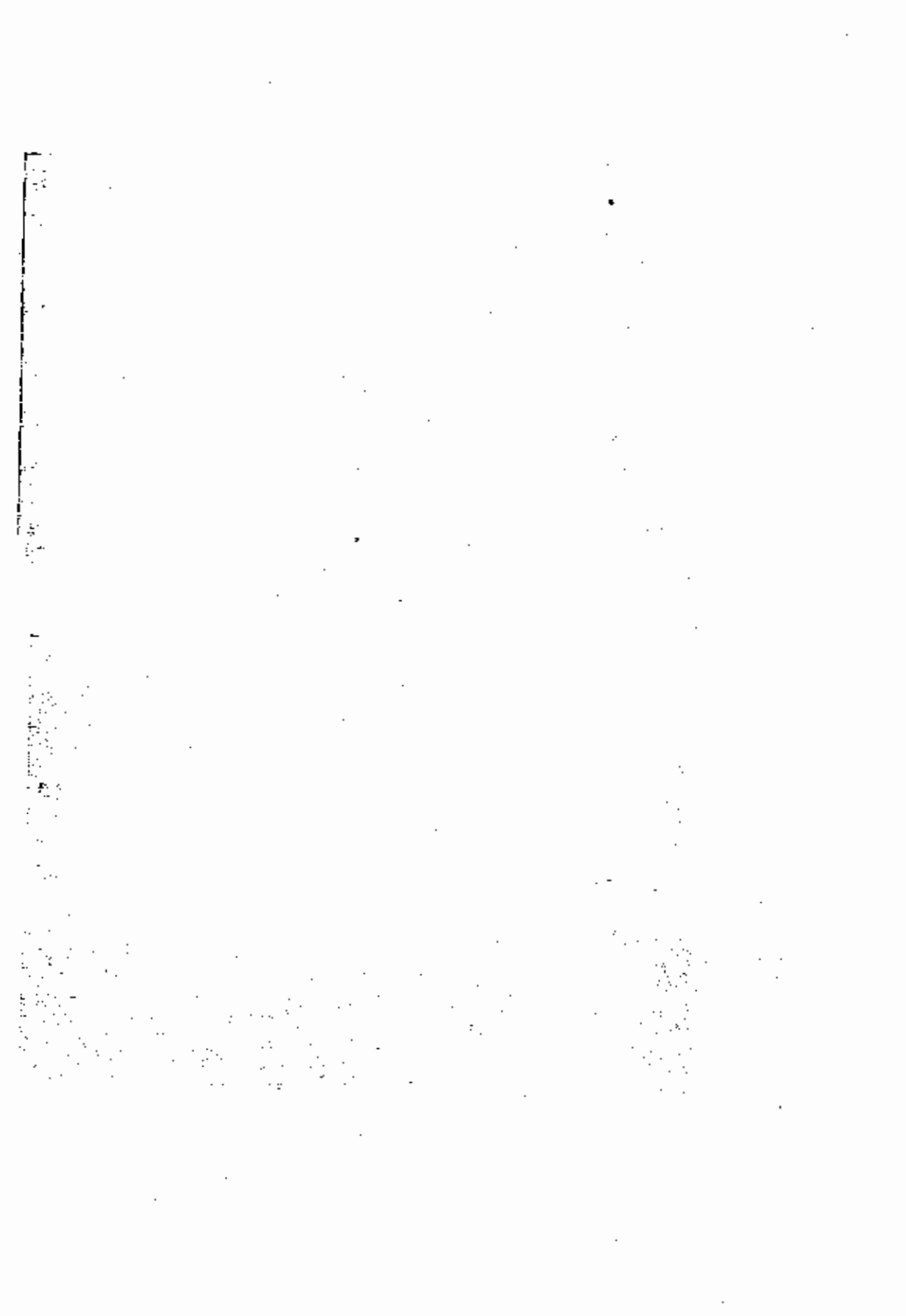

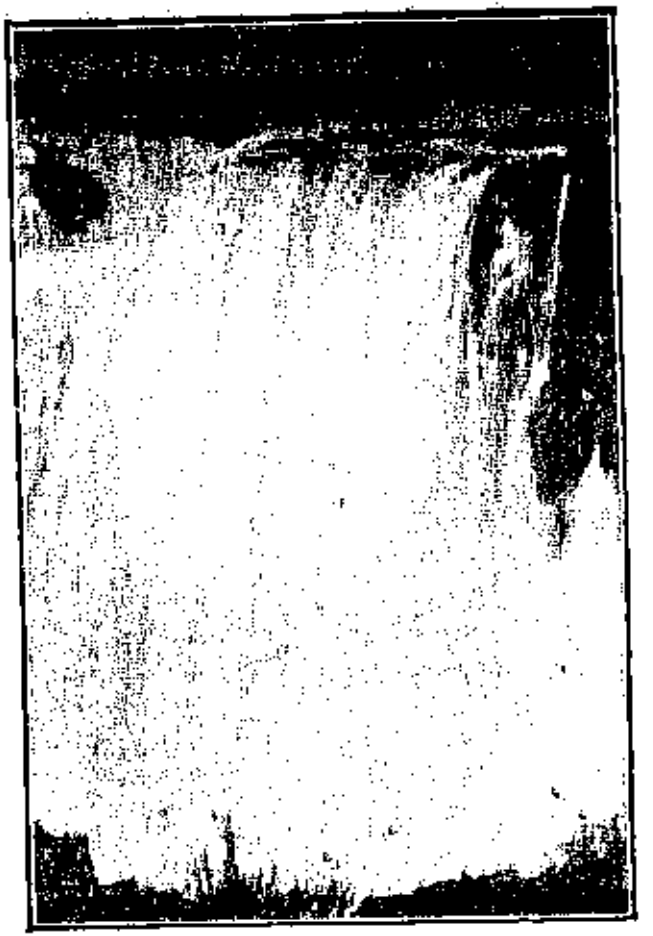

جانب من شلال اجوازو

شلالات نياغرا

مقتطف يوليو ١٩٢٧

امام الصفحة ٦٤٥